الحب في بيت النبوة .. دقائق وأسرار بلاغية

د. أحمد حسن علي(*)

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة ة السلام علي المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين، وبعد ..

فإن الله عز وجل لما شرع الزواج وجعله آية من آياته فقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ (٢١) سورة الروم أقام هذه العلاقة علي أساس قلبي وربطها برباط روحي رباط الحب والمودة فقال : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ وبهذا الرباط تنتظم الحياة بين الزوجين وتستقيم العشرة ، ومتي تخلي الأزواج عن هذا الرباط انهار البنيان ، ودب الخلاف ، وتفككت الأسرة ، والذي ينظر في حال كثير من بيوت المسلمين لا يسره الحال لضياع الألفة ، وغياب المشاعر ، واندثار المودة والرحمة بين ركام الخلاف والشقاق .

لذا حاولت أن أقدم نموذجاً للبيت المسلم السعيد القائم علي هذا الرباط المتين ، رباط الحب والمودة والتراحم بين الأزواج ينير الطريق أمام هؤلاء المتعثرين في حياتهم الزوجية يأخذ بأيديهم إلي السعادة ويقيمهم علي الطريق الصحيح،ولن نجد نموذجاً أعظم ولا أروع في هذا المضمار من بيت النبي ﷺ الذي كان خير الناس معاملة لأهله وأبلغهم في التعبير عن الحب والملاطفة للأزواج .

ولما كان كلامه ﷺ محفوفاً بالعصمة ومحاطاً بالتأييد في جميع أحواله ، فإن كلامه عن هذه العاطفة وعن حسن العشرة لا يخرج عن هذا الحد ،فهو علي الرغم من دقته واختصاره ووجازته يصور الاعتدال في التعبير عن هذه العاطفة قولاً وعملاً تصويراً يستحق الوقوف طويلاً عند كل كلمة بل عند كل حرف لتُستخرج البلاغة في أبهي حللها تشهد له ﷺأنه المحب الوفي الصادق،لذا كانت هذا الوقفة محاولا تجلية بعض الجوانب البلاغية في حديثهﷺ عن دقائق هذا الحب .

(*) مدرس البلاغة والنقد ـ كلية اللغة العربية بجرجا- جامعة الأزهر.

تمهيد :

النبي ﷺ هو المثل الأعلى والقدوة الحسنة في كل أمور الدين والدنيا فهو ﷺ الذي يعلمنا كيف نتعامل مع الناس بالمودة والحسنى ، وأولي الناس بالمودة هي الزوجة التي هي أقرب الناس إليك وأحرص الناس عليك، وباستقامة الحال معها يستقيم حال الأسرة ، والأسرة لبنة في صرح المجتمع المسلم وبصلاحها يصلح المجتمع ، وقد أولى ﷺ النساء اهتماماً كبيراً وأوصى بمعاملتهن معاملة حسنة وخاصة الأزواج ، وضرب في ذلك المثل الأعلى للرجل الذي يمتلئ صدره حباً وعطفاً وشفقة على أهله ؛فقد كان ﷺ يلاعبهن ويلاطفهن ويعبر عن مشاعر الحب والمودة ، إيذاناً بأن ديننا الحنيف دين متكامل يهتم بالمشاعر والأحاسيس ويهتم بالمعاملة الراقية النابضة بالحب والحنان ، ليس ديناً يقتصر على التكاليف والأوامر فقط .

فالحب وحسن المعاشرة لهما مكانة عظيمة في حياة المسلم الخاصة وها هو ﷺ يضرب لنا أروع الأمثلة في ذلك كما يروي ابن القيم يقول : " وكان سيرته مع أزواجه حسن المعاشرة وحسن الخلق ، وكان يسرب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها . وكان إذا هويت شيئاً لا محذور فيه تابعها عليه، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه في موضع فمها فشرب ، وكان إذا تعرَّقت عرقاً وهو العظم الذي عليه لحم أخذه فوضع فمه على موضع فمها ، وكان يتكئ في حجرها ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها وربما كانت حائضاً ، وكان يأمرها وهي حائض فتتزر ثم يباشرها ، وكان يقبلها وهو صائم ، وكان من لطفه وحسن خلقه مع أهله أنه يمكنها من اللعب ، ويريها الحبشة في مسجده وهي متكئة على منكبيه تنظر .. وكان يقول خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي ، وكان ربما مدَّ يده إلى بعض نسائه في حضرة باقيهن ، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه فدنا منهن واستقرأ أحوالهن. فإذا جاء الليل انقلب إلى صاحبة النوبة فخصها بالليل"[1].

(1) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم جـ١ ص٥٥ ط دار الريان للتراث الطبعة الأولى ١٩٨٧ م .

وهكذا كانت معاملته مع بقية أزواجه محبة وتكريماً وعطفاً وعشرة طيبة فقد كان يمازحهن ويعرب لهن عن حبه ومشاعره . ومن ألطف ما يروي هنا حديث أم زرع المشهور (2) الذي روته السيدة عائشة حيث جلس النبي ﷺ يستمع إلى السيدة عائشة في إصغاء حتى فرغت من حديثها عن هؤلاء النسوة قال لها وكنت لك كأبي زرع لأم زرع غير أني لا أطلق ".

وسوف نتعرض في هذا البحث بإذن الله لبعض الأحاديث التي تبين مدى حبه ﷺ لنسائه وتمسكه بهن .

(2) حديث أم زرع حديث طويل مشهور أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب حسن المعاشرة مع الأهل رقم ٥١٨٩ .

الحب منحة ربانية

روى النسائي وأحمد عن أنس قال قال رسول الله ﷺ " حُبِّبَ إليَّ مِن دُنيَاكُم النِّساءُ والطِّيبُ وجُعلت قُرَّةُ عَيني في الصَّلاة " (3) .

يقول الإمام السيوطي : " وفي هذا الحديث إشارة إلى وفائه ﷺ بأصلى الدين ، وهما التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، وهما كمال قوتيه النظرية والعملية ، فإن كمال الأولى بمعرفة الله والتعظيم دليل عليها ، لأنه لا يتحقق بدونها والصلاة لكونها مناجاة لله تعالى على ما قاله ﷺ المصلي يناجي ربه. ونتيجة التعظيم على ما يلوح من أركانها ووظائفها ، وكمال الثانية في الشفقة وحسن المعاملة مع الخلق . وأولى الخلق بالشفقة بالنسبة إلى كل واحد من الناس نفسه . والطيب أخص اللذات بالنفس ، ومباشرة النساء ألذ الأشياء بالنسبة إلى البدن ، مع ما يتضمن من حفظ الصحة وبقاء النسل المستمر لنظام الوجود " (4) .

والمتأمل لبلاغة الأسلوب النبوي في هذا الحديث تروعه دقة اختياره ﷺ للألفاظ المعبرة عن المعنى الذي يريد توصيله إلى المخاطبين .

فالنبي ﷺ يشير إلى تولي الله سبحانه وتعالى له في كل شئونه وتصرفاته حتى في الأمور الفطرية التي جبل عليها البشر، من حب المتع والزينة وغيرها ، فهو ﷺ حتى في هذه الأمور الفطرية مصروف إليها بتكليف من الله تعالى وتوفيق منه سبحانه .

وهذا ما نلمحه في بنائه ﷺ أسلوب الحديث على الأفعال المبنية لما لم يسم فاعله في قوله " حُبِّب إليّ " وقوله "وجُعلت قرة عيني في الصلاة " فالفاعل هنا غير مذكور، والعلة فيه العلم به وهو الله تعالى . إذ أن الحب من أفعال القلوب ولا يتحكم فى القلوب غير الله تعالى فهو يصرفها للحب والكره كيفما شاء ، فطى الفاعل هنا يستدعيه المقام ، فكما يقول البلاغيون: " إذا تعين الفاعل وعلم أن الفعل مما لا يتولاه إلا هو وحده كان ذكره فضلاً

---

(3) رواه النسائي في كتاب عشرة النساء باب حب النساء جـ٧ ص ٦١ ورواه أحمد في مسنده جـ٣ ص ١٢٨ ، ١٩٩ وصححه الحاكم في المستدرك ٢ /١٦٠ .
(4) شرح السيوطي على سنن النسائي جـ٧ ص ٦١ .

ولغـوًا (٥) وكان من الممكن أن يقول " أحب من دنياكم .... " ببناء الفعل للمعلـوم علـى سبيل أن الحب من الأمور الفطرية التي جبل عليها البشر ، لكـنه ﷺ يـريد أن يـشير إلى عصمة الله له حتى في هذه الأمور الفطرية، فمـيله ﷺ إلى النساء وحبه لهن ليس عن هوى نفس أو فتنة من النساء له – حاشـاه أن يكون كذلك – لكنه أمر مفروض عليه من قبل الله تعالى على سـبيل التكليف ؛ ولذا يقول الإمام السيوطي : " حبب إليه زيادة في الابتلاء في حقه حتى لا يلهو بما حبب إليه من النساء عما كلف به من أداء الرسالة فـيكون ذلك أكثر لمشاقه وأعظم لأجره " ثم قال في علة هذا التحبيب " إنما حـبب إلـيه النساء لينقلن عنه ما لا يطلع عليه الرجال من أحواله ويستحيا من ذكره " (6) .

ولـيس أدل على أن هذا الأمر تكليف من الله وأنه خارج عن إرادته مـن عود الضمير العائد على الدنيا على المخاطبين في قوله " حبب إليّ من دنـياكم " فلـم يقل من دنياي مثلاً ، وكأنه صلى الله عليه وسلم لا علاقة له بالدنـيا ، وأن هـذه الأمـور وإن كانت من أمور الدنيا فهي مفروضة عليه وكأنهـا من دنيا غيره لا من دنياه هو كما يقول السيوطي : " والإضافة في رواية دنياكم للإيذان بأن لا علاقة له بها " (7) .

ولعـل في هذا الحديث أبلغ رد على من يطعن في كثرة أزواجه ﷺ ويقول بأنه مزواج وأن ذلك لهوى في نفسه وحبه للنساء ؛ فهو ﷺ حتى في أمـر النساء الذي هو ميل فطري في قلوب الرجال معصوم منه ؛ وإنما كلف بذلك وحبب إليه أمرهن لغرض شرعي حتى يكثر الناقلون عنه فيما يستحي أن يذكره للرجال من معاملته لأهله وغير ذلك .

ثم عطف حبه للطيب على حبه للنساء " حُبِّبَ إليَّ مِن دُنيَاكُم النِّساءُ والطِّـيبُ " فهـو أيـضاً من الأمور التي ليس له فيها شأن ، فهو ﷺ طيب

---

(5) الحذف البلاغي في القرآن - تأليف / مصطفى عبد السلام أبو شادى ص ٥٦ - ط مكتبة القرآن للطبع والنشر .

(6) شرح السيوطي على سنن النسائي جـ٧ ص ٦١ ويراجع حاشية السندي على سنن النسائي في نفس الجزء والصفحة .

(7) شرح السيوطي على سنن النسائي جـ٧ ص ٦٢ .

الـرائحة دون أن يتطـيب ، ولعـل العلـة فـي تحبيب الطيب إليه من باب التـشريع، ولكونه أحرص ما يكون على النظافة ؛ لأنه يناجي ربه فهو يريد أن يكـون على أكمل وجه من الاستعداد . كما أن في حب الطيب إشارة إلى صحة مزاجه وقوة قلبه .

يقـول الـسندي " وأما الطيب فإنه يحبه لكونه يناجي الملائكة وهم يحبون الطيب وأيضاً هذه المحبة تنشأ من اعتدال المزاج وكمال الخلق وهو ﷺ أشد اعتدالاً من حيث المزاج وأكمل خلقة " (8) .

ثم يعطف ﷺ على حبه للنساء والطيب قرارة عينه بالصلاة فيقول : "وجُعِلت قُرَّةُ عَينِي فِي الصَّلاةُ " للإيذان بأنه يجمع بين الكمال في أمور الدنيا والكمال في أمور الدين ، وهو في كلا الأمرين محفوف بتوفيق الله .

ولـك أن تـتأمل مغايـرته ﷺ في أمر المحبة بما يتناسب مع قدر الصلاة بقوله " وجعلت قرة عيني في الصلاة " فقرارة العين مرتبة أعلى في الحب فهو في الصلاة في مرتبة مغايرة لحبه المتعلق بأمور الدنيا .

يقول السندي : " وقوله " قرة عيني في الصلاة " إشارة إلى أن تلك المحبة غير ما تعقله عن كمال المناجاة مع الرب تبارك وتعالى ، بل هو مع تلـك المحبة منقطع إليه ، حتى أنه بمناجاته تقر عينه وليس له قريرة عين فيما سواه، فمحبته الحقيقية ليست إلا لخالقه تبارك وتعالى، كما قال لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن. أو كما قال"(9).

كمـا أن في جمعه ﷺ بين أمور الدنيا " حُبِّبَ إلىَّ النِّساءُ والطِّيبُ " مـع أمور الآخرة " الصلاة " إشارة إلى أن العبادة لا يفسدها التمتع بما أحل الله تعالى بل تكون معينة عليها لأنها تصفي النفس من الشوائب فيقف العبد بين يدي ربه وهو خالي القلب صحيح النفس والمزاج .

وأمـا تأخيره أمر الصلاة عن أمر حب النساء والطيب فهو للتدرج التعليمي من الأدنى إلى الأعلى (10) .

---

(8) حاشية السندي على سنن النسائي جـ٧ ص ٦١ المكتب الإسلامي للمطبوعات حلب تحقيق د عبد الفتاح أبو غدة .

(9) حاشية السندي جـ٧ ص ٦٢ .

(10) شرح السيوطي على سنن النسائي جـ٧ ص ٦٣ .

أما عن الفصل والوصل في هذا الحديث فقد وصل بالواو بين جمله الـثلاث لمـا بينهم من جهة جامعة وتناسب في المعنى فقصد تشريكهم فى الحكم الإعرابى ؛ لأن المسند إليه فى الجمل الثلاث واحد حيث أسندت جميعًا لفاعـل واحـد معلـوم لدى المخاطبين استغنى عن ذكره ظاهرًا لكنه مقدر معلـوم، فجاءت الواو بين الجمل الثلاث لتشرك الجملتين الثانية والثالثة فى الحكـم الإعرابى للأولى . ولذا يقول الخطيب فى الوصل لقصد التشريك فى الحكـم الإعرابـى:" إن قـصد التشريك بينها وبين الثانية فى حكم الإعراب عُطفت عليها وهذا كعطف المفرد على المفرد ؛لأن الجملة لا يكون لها محل مـن الإعـراب حتى تكون واقعة موقع المفرد فكما يشترط فى كون العطف بالـواو ونحـوه مقبولاً فى المفرد أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه جهـة جامعـة .... يشترط فى كون العطف بالواو ونحوه مقبولاً فى الجملة ذلك " (١١) .

إذن .. مـن هـذا الحديث الشريف أن العاطفة والمشاعر كان لهما مكـان كبيـر فـي حياته ﷺ ، بل إنه ﷺ كان خير من يحس بهذه المشاعر ويترجمها إلى واقع عملي يتجلى في معاملته الراقية مع أزواجه .

بـل إنـه ﷺ لم يكتف بأن يعبر عن حبه لأزواجه ويعاملهم معاملة حـسنة فقط، بل حضَّ أصحابه على حسن المعاملة والرفق بالأهل ؛ وهذا ما يتـضح لنا من خلال الحديث الذي رواه الترمذي عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: " خَيْـرُكُمْ خَيْـرُكُمْ لِأَهْلِـهِ وَأَنَـا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي وَإِذَا مَـاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُـوه" (12)

فالحـديث الـشريف دعوة راقية منه ﷺ إلى كل مسلم وكل الله إليه رعايـة أهله أن يعاملهم معاملة حسنة ، وقد جاءت دعوته ﷺ تمس شغاف القلـوب بأسلوب هادئ بعيد عن ثقل التكليف الذي قد يبدو من خلال أسلوب الأمـر المباشـر، فالنفس البشرية تهرب دائماً من التكليف بالأمر ، وتأنس

(11) يراجع : الإيضاح للخطيب ص ١٨١ - تحقيق د / عبد القادر حسين - ط مكتبة الآداب ، ويراجع مواضع الفصل والوصل بين النظرية والتطبيق - د / عبد المنعم سيد عبد السلام ص ١٥٠ - مطبعة الأمانة - ط أولى ١٩٩٦م .

(12) رواه الترمذى في كتاب المناقب باب فضل أزواج النبي ﷺ رقم ٣٨٩٢ .

إلى التلويح والإشارة ؛ ولذا فقد جاء الحديث في أسلوب خبري يثبت الخيرية المطلقة التي يسعى إليها كل مسلم – على الناس جميعاً – لمن تحققت فيه الخيرية في أهل بيته .

وكأنه ﷺ بهذا الحديث يقيم لنا ميزاناً يزن فيه كل واحد منا نفسه فيعلم هل هو من الأخيار أم من الأشرار ، وميزان كل واحد هو معاملته لأهله ومن استرعاه الله أمرهم ، فإن كان يؤدي ما عليه من واجبات محسناً إليهم في معاملته فهو من خير الناس ، و إلا فليتهم نفسه .

وللتأكيد على ثبوت هذه الخيرية لهذا الذي أحسن معاملة أهله يسوق ﷺ هذا الخبر في أسلوب الجملة الاسمية التي هي بطبيعتها تدل على الثبوت والدوام ، إشارة إلى أن هذه الخيرية المطلقة ملازمة للمسلم ثابتة عنده ما دام في معاملة حسنة لأهله وأزواجه ، ثم تتفاوت هذه الخيرية بتفاوت درجات المعاملة الحسنة ، فأفضل الناس جميعاً هو أفضلهم معاملة في بيته ، وهذا ما يدلنا عليه استخدامه ﷺ لصيغة أفعل التفضيل " خيركم " إذ أن معنى خيركم أي أخيركم وحذفت منها الألف لكثرة الاستعمال (13) .

وحتى يكون للكلام مثال من الواقع ضرب ﷺ مثالاً بنفسه فقال : " وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي " فالصحابة رضوان الله عليهم يعترفون بخيرية النبي ﷺ على البشر جميعاً وشاهدوا ذلك من واقع حياتهم، لكنهم لم يروا معاملته مع أهله فأراد أن يؤكد لهم أن خيرته على الناس جميعاً يستفاد منها خيرته مع أهله وأزواجه ، فسلك إلى هذا التأكيد طريقًا رائعًا من طرق التوكيد ألا وهو طريق القصر الذى يعد ضربًا من ضروب تأكيد المعانى ؛ لأن معناه تخصيص أحد الطرفين بالآخر ، وكون أحدهما مختصًا بصاحبه يجعله ألزم وألصق (١٤) طريق القصر الذى استخدمه هنا هو تعريف الطرفين ، فقد قصر الخيرية إلى الأهل عليه ﷺ التى ينتج منها أنه ﷺ خيرهم ، وأفضلهم

---

(13) تراجع المسألة في النحو الوافي لعباس حسن جـ٣ ص ٣٩٧ ط دار المعارف الطبعة العاشرة .

(14) يراجع : شروح التلخيص جـ ٢ ص ١٦٦ ، والإيضاح ضمن الشروح ، ويراجع : الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ـ د / عز الدين على السيد ص ١٢٣ .

على الإطلاق ، لأنه فى الجملة الأولى " خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ " قصر الخيرية علـى كـونها متعلقة بالأهل ثم قصر الخيرية إلى الأهل عليه ﷺ ، فهو إذن خيـر الناس على الإطلاق ، ولذا نجد أن موقع الواو بين الجملتين مهم ولا يـستغنى عنه ؛ لأن الجملتين مرتبطتان ارتباطًا وثيقًا فكان سبب الوصل هنا هو وجود الجهة الجامعة والمناسبة التامة بين معنى الجملتين .

ولما كانت المعاملة الحسنة لا تقتصر على الأحياء فقط ، بل تتعدى لتـشمل حتـى الأمـوات ؛ أرشـدهم ﷺ إلى ذكر محاسن الموتى وعدم ذكر مـساوئهم فقـال : " وَإِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوه " أي إذا مات واحد منكم من جملـة أهاليكم فاتركوا ذكر مساوئه ، يقول صاحب تحفة الأحوذي : " دلهم ﷺ على المجاملة وحسن المعاملة مع الأحياء والأموات " (15) .

ولما كانت الإساءة إلى الأموات أشد حرمة من الإساءة إلى الأحياء انـتقل ﷺ مـن الأسلوب الخبري الهادئ إلى أسلوب الأمر المباشر المستلزم لتـرك الإساءة حيث قال " فدعوه " إذ أن حرمة الميت لا يكفي فيها الإشارة أو الـتلويح ، فاقتـضى الأمر إلى النهي عن الإساءة إليه بالأسلوب المباشر الذي يقتضي المنع والزجر .

وهكذا يعلمنا ﷺ كيفية المعاملة وحسن الأدب مع الأهل والأقارب ، إذ جعـل خيرية المسلم موقوفة على سلوكه في بيته وحسن معاملته لأهله ، ثم أقام الدليل على هذا الكلام بأن أخبر أنه هو ﷺ خير الناس معاملة لأهله، فـضرب بذلك القدوة والمثل الأعلى في الإحسان إلى الأهل والأقارب ، وكأنه يعرض بهؤلاء الذين لا يحسنون العشرة مع أزواجهم أنهم لا خير فيهم ؛ إذ لـو كـان فـيهم خير لظهر أثره في حسن العشرة مع الأزواج وهنّ أقرب الناس إليهم .

---

(15) تحفة الأحوذي للمباركفوري ط دارإحياء التراث جـ١٠ ص ٣٦٣ .

العدل بين الزوجات في المبيت وليس في الحب:

لما كانت المعاملة الحسنة المطلوبة من كل مسلم مع أهله وأزواجه ناتجة عن المحبة التي ينبغي أن تكون بينهم ، كان من الممكن أن يكون هناك تفاوت في المعاملة بحسب درجة المحبة والقبول فيفضل بعض أزواجه على بعض ولا يساوي بينهن في القسمة فيظلم ويجور .

لذلك وجهنا ﷺ إلى الواجب على المسلم من العدل في القسمة بين الأزواج في العطية والمبيت ، ولا حرج عليه فيما يجده في قلبه من ميل أو زيادة محبة لبعض أزواجه دون بعض ، يتضح لنا ذلك من خلال الحديث الذي أخرجه أبو داود عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ(16) .

فالحديث الشريف يبين كيفية المعاملة مع الأزواج بما يحفظ المودة والعشرة الحسنة ، فالحد الواجب على الزوج أن يعدل فيما يملكه من مبيت وغيره دون تفضيل لواحدة على الأخرى، ثم هو بعد ذلك غير مؤاخذ فيما يجده في قلبه من حب زائد لإحدى أزواجه فهذا مما لا يملكه؛ لأن المحبة وميل القلب أمر غير مقدور للعبد ؛ إذ هو من عند الله ويدل عليه قوله تعالى " لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم (17) (18) .

ولذا تراه ﷺ قبل أن يطلب المعذرة من الله وعدم المؤاخذة فيما يجده من حب زائد لبعض نسائه يقدم الإشارة إلى أنه بذل ما في وسعه من العدل في القسمة بينهن فيقول : " اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ " والمعنى هذا العدل هو قسمي فيما أقدر عليه وأستطيعه .

---

(16) أخرجه أبو داود جـ٢ ص ٢٤٢ كتاب النكاح باب القسم بين النساء حديث رقم ٢١٣٤ .

(17) سورة الأنفال : ٦٣ .

(18) عون المعبود شرح سنن أبي داود جـ٦ ص ١٣٨ - ط دار الفكر - تحقيق / صدقي جميل العطار - الطبعة الأولى ١٩٩٥ م .

واستهلاله ﷺ لكلامه بهذا النداء لرب العزة تبارك وتعالى- وهو نداء الألوهية المسيطرة على مقاليد كل شيء ثم اختيار لفظة اللهم التي تحذف فيها أداة النداء"يا" وتعوض عنها الميم في خصوصية لهذه اللفظة تبعاً لاختصاص مسماها بخصائص - ليستفتح به كلامه ودعاءه في بيان عذره إن حصل منه بعض الميل ، فهو يتحرى العدل بينهن بأقصى درجاته ، ويدلنا على ذلك إتباعه النداء بلفظ الإشارة " هذا " المشار به إلى حاله في العدل" وهو " إشارة إلى القريب - قرباً غير حسي - ليدل به على أنه إلى لحظة النطق بهذا الدعاء ما زال يتحرى العدل بينهن .

كما يُلحظ أنَّ ما بعد اسم الإشارة " هذا " محذوف واقع موقع البدل وتقديره " هذا العدل قسمي " وقد حذف لدلالة الحال والمقام عليه ، ودلالة الحال والمقام مسوغ من مسوغات حذف المسند إليه ، فحاله ﷺ شاهد على تحري العدل بينهن ولذلك تقول السيدة عائشة في بيان حاله معهن " كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا ، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً فيدنو من كل امرأة دون مسيس حتى يبلغ التي هو يومها فيبيت عندها " (19) .

ثم بعد أن قدم العذر بشرح حاله في العدل طلب من الله عدم المؤاخذة في الميل القلبي فقال " فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ" والنهي هنا " لا تلمني " خرج من معناه الحقيقي إلى معنى التضرع والدعاء بعدم المؤاخذه، وهذا التضرع يناسبه الاعتراف بسيطرته تعالى على القلوب ، وأن هذا الميل ليس في مقدور العبد ، فجاء قوله "فيما تملك " أي تملكه أنت وحدك ، بعد قوله" فلا تلمني" ليؤكد اختصاصه تعالى بذلك وحده ، ثم يجرد نفسه كلية من ملكية أي شيء في هذا الأمر بقوله : " ولا أملك " أي تملكه أنت ولا أملكه أنا ، وقد استخدم فى تأكيد هذا التجرد أسلوب القصر بطريق العطف بلا حيث قصر ملكية الميل إلى إحدى الأزواج أكثر من غيرها على الله تعالى دون غيره فهو المصرف للقلوب كيفما يشاء فهو

(19) تحفة المحتاج لعمر بن علي الوادياشي الأندلسي جـ٢ ص ٣٩٠ ط دار حراء بمكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ تحقيق عبد الله بن سعاف اللحياني .

قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا (٢٠) ، وبذلك يكون النبى ﷺ قد جرد نفسه تمامًا وألقى إلى الله العذر فى ذلك فهو الذى يملك قلبه وهو الذى يودع فيه من الحب ما يشاء .

وهذا التجرد من أدنى ملكية لهذا الأمر بعد تخصيصه سبحانه بأنه مالك الأمر كله يناسب الضراعة وطلب عدم المؤاخذه تمام المناسبة .

ثم انظر إلى استخدامه ﷺ لكلمة " فلا تلمني " دون فلا تؤاخذني " وما فيه من ملائمةٍ تامةٍ للمقام والحال التي هو فيها ؛ فالتعبير بـ" لا تلمني" تعبير رقيق يناسب رقة القلب وميله إلى إحدى الزوجات ، فاللوم يتناسب مع المقام لأن المخالفة ليست مخالفة محسوسة تظهر في تفضيل واحدة على أخرى في المبيت مثلاً أو الإنفاق ، وإنما هي أمر نفسي يتعلق بميل القلب فكان استخدام مادة اللوم أنسب من المؤاخذة .

وبهذا الحديث الشريف يضرب لنا ﷺ المثل الأعلى في معاملة الأزواج وتحري العدل بينهن في الأمور المحسوسة التي يملكها الإنسان ، ثم أبان العذر وعدم المؤاخذة فيما يجده الإنسان من ميل قلبي إلى إحدى الزوجات ، فهذا لا حرج فيه ؛ لأنه ليس في مقدور العبد ، بل هو من الأمور التي يملكها مصرف القلوب .

ولم يقتصر رفقه ﷺ بأزواجه وأهله في بيته فقط ، بل كان ﷺ رفيقاً بهم حتى في أسفاره ، فقد كان من عادته ﷺ في أسفاره أن يقرع بين نسائه فمن خرج سهمها أخذها معه .

ويتجلى عطفه ورحمته بهن في أسفاره في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَتَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ وَمَعَهُنَّ أُمُّ سُلَيْمٍ فَقَالَ وَيْحَكَ يَا أَنْجَشَةُ رُوَيْدَكَ سَوْقًا بِالْقَوَارِيرِ" .قَالَ أَبُو قِلَابَةَ فَتَكَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَلِمَةٍ لَوْ تَكَلَّمَ بِهَا بَعْضُكُمْ لَعِبْتُمُوهَا عَلَيْهِ قَوْلُهُ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ (21) .

---

(20) شرح عقود الجمان للسيوطى ص ٤٤ ـ ط عيسى الحلبى ١٣٥٨ هـ .

(21) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء رقم ٦١٤٩ وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل باب رحمة النبي صلى الله عليه وسلم للنساء رقم ٢٣٢٣ .

وأنجشة الذي خاطبه النبي ﷺ بهذا الكلام هو غلام أسود حسن الصوت يحدو الإبل في الأسفار . وتلحظ رقته ﷺ وشفقته بهن من خلال زجره لأنجشه بقوله : " ويحك (22) . رويدك سوقاً بالقوارير" ومن خلال تشبيهه ﷺ بالقوارير في الرقة والشفافية .

وقد اختلف العلماء في سبب زجره لأنجشة فقال بعضهم: إن أنجشة كان حسن الصوت وكان يحدو بهن وينشد شيئاً من القريض والرجز وما فيه من تشبيب، فلم يأمن أن يفتنهن ويقع في قلوبهن حداؤه فأمره بالكف عن ذلك

وقال البعض الآخر أن المراد به الرفق في السير؛ لأن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت في المشي واستلذته فأزعجت الراكب وأتعبته، فنهاه عن ذلك ؛ لأن النساء يضعفن عند شدة الحركة ويخاف ضررهن وسقوطهن (23) .

والرأي الثاني هو الأولى بالصواب – والله أعلم – لأنه هو الذي يتناسب مع تشبيهه ﷺ لهن بالقوارير ؛ إذ أن القوارير لشدة لطافتها يخشى عليها من الحركة القوية حتى لا يتسارع إليها الكسر .

وقوله " رويدك " بمعنى كفاك . وهو من الترو د في طلب الشيء برفق، وهو منصوب على أنه صفة لمحذوف دل عليه اللفظ ، أي سق سوقاً رويداً أو على المصدر أي أرود رويداً مثل أرفق رفقًا ،أو على الحال أي سر رويداً (24) .

وقوله" بالقوارير" القوارير جمع قارورة وسميت بها لاستقرار الشراب فيها

قال بن الأثير : شبه النساء بالقوارير من الزجاج لأنه يسرع إليها الكسر وقال الرامهرمزي : كنى عن النساء بالقوارير لرقتهن وضعفهن عن

---

(22) " ويح " زجر لمن أشرف على الوقوع في هلكة وقيل كلمة رحمة ينظر مختار الصحاح مادة " ويح " وشرح النووي على صحيح مسلم جـ٨ ص ٨٩ .

(23) يراجع شرح النووي على صحيح مسلم جـ٨ ص ٨٩ .

(24) يراجع : لسان العرب مادة رَود جـ ٣ ص ١٨٧ – ط دار صادر بيروت ، ويراجع : فتح البارى جـ ١٦ ص ٤٣٦ .

الحـــركة والنساء يشبهن بالقوارير في الرقة واللطافة وضعف البنية . وقيل شـــبههن بالقوارير لسرعة انقلابهن عن الرضا وقلة دوامهن على الوفاء يسرع إليها الكسر (25) .

وقـــال الطيبي : هي استعارة لأن المشبه غير مذكور والقرينة حالية لا مقالية . ولفظ الكسر ترشيح لها (26) .

ومعنى قول الطيبي استعارة أي استعارة تصريحية حيث شبه النساء بالقوارير فـــي الـــرقة والضعف ثم تناسى التشبيه واستعار لفظ المشبه به للمشبه وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وقـــوله والكسر ترشيح لها " أي أن الكسر من ملائمات المشبه به وهو في ذلك معتمد على رواية مسلم " رويداً يا أنجشه لا تكسر القوارير " .

وهـــذا الكـــلام على جميع احتمالاته ليعطي المثل الأعلى للطفه ﷺ بالنساء وشفقته عليهن ورحمته به.

---

(25) النهاية فى غريب الحديث والأثر جـ٤ ص ٣٩ ط المكتبة العلمية وأمثال الحديث للرامهرمزي ص ١٢٣ ط مؤسسة الكتب الثقافية.

(26) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح جـ٩ ص ٢٢٠ – ط دار الكتب العلمية ط أولى ٢٠٠١ م .

تفاضل بعض أزواجه على بعض في الحب

حُبّه ﷺ لخديجة بنت خويلد ﷺ :

كان زواجه ﷺ بالسيدة خديجة ﷺ فاتحة عهد جديد في حياته أطل منه لأول مرة على عالم المرأة ، فوجد فيها عوناً له على تحمل أعباء رسالته فلقد كانت رضي الله عنها حبه الأول ، فهي زوجته التي ذاق معها طعم الزوجية مريئاً فلم يعرف معها زوجة أخرى طول المدة التي عاشتها معه ، وقد نافت على خمسة وعشرين عاماً .

ويمكن أن يقال أن في زواجه ﷺ من السيدة خديجة ﷺ أنه زواج بدافع الفطرة لم تتدخل فيه أسباب أخرى غير المحبة وإنشاء أسرة مثالية كانت قرة عين للطرفين من غير اعتبار لما بينهما من فارق السن .

بل لعل هذا الفارق كان ضرورياً لمن فقد حنان الأمومة وعطف الأبوة وهو طفل ، فقد كانت له رضي الله عنها بمثابة الأم الحنون التي يرتمي في حضنها الولد عند الفزع . وخير دليل على ذلك موقفها رضي الله عنها معه عند بدء الوحي ، فقد دخل عليها ﷺ يرجف فؤاده ويقول زملوني زملوني فما كان منها إلا أنها أخذت تهدئ من روعه وتطمئنه على نفسه وتقول له " كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضعيف وتعين على نوائب الحق " (27) .

وهكذا كانت له رضي الله عنها فترة حياتها معه التي دامت خمسة وعشرين عاماً في حياة يملؤها الحب والوفاء والوقوف إلى جواره ﷺ في سبيل تبليغ دعوته ، تشد من أزره وتقوي من عزيمته ، ولذلك حفظ لها ﷺ هذا الوفاء وهذا الحب فلم يفكر أن يضم إليها زوجة أخرى طوال هذه الفترة ، بل الأعجب من ذلك أنه ﷺ لم ينس فضلها حتى بعد وفاتها ، حتى إنَّه ﷺ كما أخبرت عنه السيدة عائشة قالت : وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ فَيَقُولُ أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ " (28) .

---

(27) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ١ ص ٧٥ حديث أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي ط دار الغد العربي بيروت .

(28) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة - باب فضل خديجة أم المؤمنين حديث رقم ٢٤٣٥ .

أي عاطفـــة وأي وفـــاء أعظم من ذلك ؟! وفاء لها في حياتها بعدم الـــزواج علـــيها وإكـــرام عشرتها، ووفاء بعد وفاتها بتعهد أصدقائها . لقد ضـــرب ﷺ المـــثل الأعلى في الوفاء بحق العشرة وحفظ المودة بين الأزواج في صورة لا تليق إلا به ﷺ. فما أعظمك يا رسول الله ! .

وهـــذا الوفاء المنقطع النظير هو ما دفع أزواجه ﷺ إلى الغيرة من السيدة خديجة لما كان يكثر من ذكرها ويصرح بحبها . كما صح عند الإمام مـــسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ مَا غِرْتُ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا عَلَى خَدِيجَةَ وَإِنِّي لَمْ أُدْرِكْهَا قَالَتْ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَبَـــحَ الشَّاةَ فَيَقُولُ أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ قَالَتْ فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا فَقُلْتُ خَدِيجَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا " (29) .

انظـــر إلى كلام السيدة عائشة وهي من هي في مكانتها عند رسول الله ﷺ ، حـــيث كانـــت أحب نسائه إليه بعد السيدة خديجة ، تصرح بغيرتها مـــن الـــسيدة خديجـــة لما كان ﷺ يكثر من ذكرها ، وهذا دليل على مكانة خديجة رضي الله عنها في قلب النبي ﷺ .

ثم انظر إلى عدم تحرجه ﷺ من التصريح بحبها ومكانتها عنده حين قـــال " إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا " ولك أن تتأمل بلاغته ﷺ في التعبير عن عاطفته تجـــاه السيدة خديجة حيث ساق الخبر في جملة قصيرة غاية في الإيجاز إلا أنها تقطع أي جدل وتخرس عن أي كلام .

وأول بلاغة هذه الجملة : ورودهـــا في سياق الجملة الاسمية مما يضمن لها الاستمرارية والدوام بدلالة الاسمية على الثبوت والدوام .

ثانـيها : تأكيد هذه الجملة بإن الداخلة على الجملة الاسمية وهي مـــن أقوى المؤكدات التي يحتاج إليها المتكلم غالباً إذ كان المخاطب منكراً . وقد نُزِّلت السيدة عائشة رضي الله عنها منزلة المنكر لما بدا منها من شدة استغرابها وتعجبها من كثرة ذكره ﷺ للسيدة خديجة .

ثالـثها : إرداف التأكـــيد الأول بتأكـــيد آخـــر وهو التأكيد بـــ" قد " الداخلة على الفعل الماضي الذي يمحضها للدلالة على التحقق والوقوع " إِنِّي

(29) مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل خديجة أم المؤمنين جـ٨ ص ٢١٥ .

قــدْ رُزِقتُ حُبَّهَا " ولذلك ليحسم القضية وينهي الكلام حيث إن حبها قد تمكن من قلبه فلا مجال للنقاش في هذه المسألة .

رابعها : بناء الفعل الماضي " رُزِقت " إلى ما لم يسم فاعله وذلك للتدليل على أن الأمر ليس من عنده بل هو هبة مما يملك تصريف القلوب ، فالله عز وجل هو الذي رزقه حبها وصرف قلبه إليها فلا ملام عليه في ذلك ، وفي هذا دليل على مكانة السيدة خديجة عند الله تعالى .

يقــول القرطبي : " قوله (إِنِّي قَدْ رُزِقتُ حُبَّهَا) يمدحها ويثني عليها ويذكــر فضلها ، وذلك لفرط محبته إياها لما اتصل له من الخير بسببها وفي بيتها ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره " (30) .

خامــسها : التعبيــر عن استقرار حبها في قلبه بالرزق في قوله " رزقــت " للدلالــة على أن الأمر محتوم ولا دخل له فيه فالأرزاق من جملة الأقدار المكتوبة للعبد ولا بد أن يدركها ويستوفيها .

يقــول الإمام النووي : قوله " رزقت حبها " فيه إشارة إلى أن حبها فــضيلة حــصلت لــه . ثم يقول وفي هذا كله دليل لحسن العهد وحفظ الود ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته " (31) .

بــل إنك لو تدبرت الرواية التى جاءت عند البخارى لعلمت حقًا أنه كــان ﷺ لا مثيل له فى وفائه واعترافه بحسن العشرة وعدم نسيانه لما كان بينهما من رقراق المشاعر التى لا تتلاشى مع مرور الأيام ، وإليك نص هذه الرواية :

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ وَمَا رَأَيْتُهَا وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّــهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا وَرُبَّمَا ذَ بَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا

---

(30) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للإمام القرطبي جـ٦ ص ٣١٨ ط دار بن كثير بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ م .

(31) شرح النووي على صحيح مسلم جـ٨ ص ٢١٧ .

فِـي صَـدَائِقِ خَدِيجَـةَ قُرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ فَيَقُولُ إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ " (٣٢) .

فـتأمل أولاً قـول السيدة عائشة " كان النبى ﷺ يكثر ذكرها " تجده يتـرجم لك ما ينطوى عليه صدر النبى ﷺ من حب وافر للسيدة خديجة لأن اللـسان مرآة القلب التى تنطبع عليها أدق الخفايا التى تكمن بداخله ، فقلبه ﷺ يـسيطر عليه حبها، لذا تراها دائمًا يلهج لسانه بذكرها ، وكما يقولون " مـن أحـب شـيئًا أدام ذكره " ودوام ذكر المحبوب دليل واضح على صدق الحب.

ولأن النبـى ﷺ أوفـى الـناس وأبرّ الناس وأصدق الناس حتى فى عاطفـة الحـب كان ﷺ فوق إدامة ذكرها لا ينسى صلة من كانت تحبه هذه الـزوجة الوفـية فكـان يذبح الشاة ويقطعها ثم يرسلها إلى صدائق خديجة إعلانًـا مـنه أنه أبر الناس وأصدق الناس وأوفى الناس ، فصلى الله عليك وسلم يا خير الناس .

ثـم انظـر إلى رد النبى ﷺ على السيدة عائشة حين قالت : كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة ؟ ! ، قال : " إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ " لـم يتحـرج من ذكر فضائلها وما لها من مآثر ، وكأنه يعلل للسيدة عائـشة رضى الله عنها كثرة ذكره لها ، وقوله " كَانَتْ وَكَانَتْ " كناية رائعة عـن كثـرة فضائلها أى كانت فاضلة وكانت عاملة ، وكانت نقية وكانت كذا وكانت كذا وهذه الكناية أغنت عن تعديد هذه المآثر ، فاجتمع فى هذه الجملة نكتـتان بلاغيتان : الأولى هى الإيجاز بالحذف حيث حذف المسند وهو خبر كـان وذلك للدلالة على أنه شىء لا يحيط به الوصف ولتذهب نفس السامع فى تفصيله كل مذهب فهى مناقب كثيرة متعددة يعجز اللسان عن حصرها ، لذلك آثر ﷺ هذا الحذف ليدع المجال لعقل المخاطب حتى يتصور ما يمكن له أن يتـصوره مـن أوصاف هذه الزوجة الفاضلة ، وهذا غرض بلاغى رائع للحـذف أشـار إليه السكاكى بقوله : " وفى تركه تعويلاً على شهادة العقل

(32) البخارى جـ ٣ ص ١٣٨٩ - كتاب فضائل الصحابة - باب تزويج النبى ﷺ خديجة وفضلها رقم ٣٦٠٧ - ط دار ابن كثير اليمامة - بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م - تحقيق / مصطفى ديب البغا .

وفـــى ذكـــره تعـــويلاً علـــى شـــهادة اللفـــظ من حيث الظـــاهر وكم بيـــن الشـــهادتين" (٣٣) .

نعـــم فلـــو أن النبى ﷺ ذكر المسند فقال كانت فاضلة وكانت عاملة وكانت تقية مثلاً فربما اكتفى بذكر فضيلتين أو ثلاث ، لكنه لما ترك ذكر هذا الخبـــر تـــرك المجـــال واســـعًا أمام ذهن المخاطب فاتسع مجال تصور هذه الفضائل بصورة كبيرة .

والثانـــية هـــى هذه الكناية الرائعة عن كثرة الفضائل والذى تسبب فيها حذف المسند فهو بهذه الجملة " كانت وكانت " يكنى عن فضائل ومآثر كثيـــرة يـــضيق المقام عن تعديدها ، وإصابة المحذ لهذه الكناية فى موقعها أنهـــا فتحت المجال للعقل أن يسرح لا فى تصور هذه المآثر دون أن توقفه عـــند حده ، ولعل هذا يوافق ما عناه الإمام عبد القاهر عند حديثه عن شرط دلالـــة المعنـــى على المعنى حتى يكون بليغًا فقال " ... من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذى تجعله دليلاً على المعنى الثانى ووسيطًا بينك وبينه متمكنًا فى دلالته ، مستقلاً بوساطته ، يسفر بينك وبينه أحسن سفارة ويشير لـــك إلـــيه أبين إشارة حتى يخيل إليك أنك فهمته من حاق اللفظ ، وذلك لقلة الكلفة فيه عليك ، وسرعة وصوله إليك " (٣٤) .

فحقـــا كمـــا قـــال الإمـــام إن هذا اللفظ " كَانَتْ " أسفر عن المعنى المقـــصود أحسن سفارة وأشار إليه أبين إشارة ، وهذا من روائع بلاغته ﷺ ودقـــته فى اختيار الألفاظ التى توحى بالمعنى الذى قصده ، فهو يعرف حق المعـــرفة متى تكون الإشارة أبلغ من العبارة والكناية أبلغ من التصريح لأنه ابلغ البلغاء وأفصح الفصحاء ، إذ من صفات البليغ البصر بمواضع الفرصة بمعنى أن تدع الإفصاح إلى الكناية حين تكون الكناية أسرع فى الوصول إلى الغرض (٣٥) .

---

(33) مفتاح العلوم للسكاكى ص ٩٩ - مطبعة الحلبى - الطبعة الثانية ١٩٩٠ م .

(34) دلائل الإعجاز ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ - تحقيق / محمود محمد شاكر - ط مطبعة المدنى بالقاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٩٢ م .

(35) يراجع : البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص ٦١ - ط دار صعب بيروت - الطبعة الأولى ١٩٦٨ - تحقيق / فوزى عطوى .

وبعد أن وصل النبى ﷺ بالسيدة عائشة إلى تصور هذه المناقب التى كانت تحتويها أم المؤمنين خديجة – رضى الله عنها – حبيبة رسول الله ﷺ من خلال هذه الكناية بقوله : " كانت وكانت " والتى آثر فيها أن تكون بلفظ الماضى لأن السيدة خديجة كانت قد توفيت ولم تكن السيدة عائشة عاصرتها حتى ترى بعينها هذه المناقب ، بعد هذا كله جمع النبى ﷺ للسيدة خديجة منقبة أخرى رأتها السيدة عائشة وهى " وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ " ليجمع لها بين ما لم تر وما رأت ، وكأنه ﷺ يقول لها إن لم تكف مناقبها التى أفسحت المجال لعقلك أن يتخيلها فهناك منقبة أخرى امتازت بها عن سائر نسائه ﷺ وهى أنها كانت أم لأولاده دون غيرها .

ولعل هذا هو سر مجئ الواو بين الجملتين لتشرك الثانية مع الأولى فى حكمها الإعرابى ، وذلك لوجود الجهة الجامعة والمناسبة التامة بين الجملتين حيث ضم هذه المنقبة التى انفردت بها إلى مناقب ومآثر ذهب العقل فى تخيلها كل مذهب ، وفوق ذلك اتفاق الجملتين فى الخبرية لفظًا ومعنى .

ثم انظر إلى تقديم الخبر " لى " حرف الجر المضاف إلى ضميره ﷺ ليبين سرًا من أسرار حبه لها ، وهى كونها سببًا نعمة ساقها الله إليه منها خاصة وهى نعمة الولد فهى صاحبة فضل وسبب من أسباب النعمة التى خص بها النبى ﷺ وكان يمكن أن يقول : وكانت أم لأولادى ، لكنه ﷺ آثر التعبير بـ " لى " ليبين أنها سبب فى نعمة خص بها ﷺ .

ثم انظر إلى تجاور وتلاصق الضمير العائد إليه ﷺ بالضمير العائد إليها – رضى الله عنها – " لِي مِنْهَا " تراه يصور لك تجاور وتلاصق قلبيهما ، فحب أمنا السيدة خديجة قد التصق بقلب النبى ﷺ ولم يعد له فكاك عنه حتى بعد وفاتها ، وخاصة بعد أن تركت له ما يذكره بها وهو بناتهﷺ .

أرأيت حبًا أنقى ولا أبقى من حب النبى ﷺ " ! ، أرأيت وفاءً أو برًا أعظم من وفائه وبره ﷺ لم سكن حبهم قلبه الشريف ، إنه يعلمنا كيف يكون الحب صافيًا وكيف يكون الود باقيًا وكيف يكون الوفاء والبر لمن شاركك الحب مادام هذا الحب لله وفى الله .

حبه صلى الله عليه وسلم للسيدة عائشة :

لا يخفى على أحد قدر أم المؤمنين عائشة ومنزلتها من قلب رسول الله ﷺ فهي الصديقة بنت الصديق ، كان مولدها في الإسلام قبل الهجرة . ومات النبي ﷺ ولها نحو ثمانية عشر عاماً وقد حفظت عنه شيئاً كثيراً .فأكثر الناس الأخذ عنها ونقلوا عنها من الأحكام والآداب شيئاً كثيراً حتى قيل أن ربع الأحكام الشرعية منقول عنها رضي الله عنها (36) .

وكان زواجه ﷺ منها بأمر من الله تعالى حيث جاء إليه الملك وعرضها عليه في سَرَقَة(37) من حرير وقال هذه زوجتك فها هو ﷺ يقص ذلك كما تروي السيدة عائشة قالت قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيتُكِ فِي الْمَنَامِ ثَلاثَ لَيَالٍ جَاءَنِي بِكِ الْمَلَكُ.فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ فَيَقُولُ هَذِهِ امْرَأَتُكَ فَأَكْشِفُ عَنْ وَجْهِكِ فَإِذَا أَنْتِ هِيَ فَأَقُولُ إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِهِ " (38) .

وقد كان رسول الله ﷺ يحبها حباً شديداً حتى إن ذلك قد دعى بقية أزواجه إلى الغيرة من السيدة عائشة فها هي السيدة عائشة تروي تقول : أَرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيْهِ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ مَعِي فِي مِرْطِي فَأَذِنَ لَهَا فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلْنَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلْنَكَ الْعَدْلَ فِي ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ وَأَنَا سَاكِتَةٌ قَالَتْ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ بُنَيَّةُ أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ فَقَالَتْ بَلَى قَالَ فَأَحِبِّي هَذِهِ " (39) .

فانظر إلى اعترافه ﷺ ضمناً بحب عائشة ﷺ . وهذا الاعتراف ينبثق عن تقريره للسيدة فاطمة بقوله " أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ ؟فالاستفهام هنا للتقرير، والتقرير هنا معناه طلب الإقرار منها بحبها ما يحبه رسول الله ﷺ .

---

(36) يراجع فتح الباري جـ١١ ص ٨٠ .

(37) السرقه بفتح السين والراء الشفق الأبيض من الحرير لسان العرب مادة سرق .

(38) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة جـ٨ ص ٢١٨ .

(39) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة رقم ٢٤٤٢ .

فلمـــا أقرت بأنها تحب ما يُحبه هو قال لها " فأحبي هذه " باستخدام اسم الإشارة الموضوع للإشارة إلى القريب تلويحاً بقربها من قلبه .

والكلام مبني على الإيجاز بالحذف إذ تقدير الكلام " فأحبي هذه فإني أحـــبها " وقد أغنى عن هذا المحذوف ما فُهم من تقريره السابق في قوله " ألـــست تحبـــين ما أحب فكان الحذف هنا هو البلاغة فكما يقول عبد القاهر عـــنه: " فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفـــادة " (٤٠) .ثم انظر إلي اسم الإشارة وما فيه من تعظيم أمر المشار إليه فـــي قـــوله:" فَأحِبِّي هَذِهِ"ولم يقل فأحبيها أو أحبي عائشة إشارة إلي قدرها عنده.

وليس معنى اعترافه ﷺ بحبها ضمناً دون التصريح أنه يتحرج من ذلـــك ، فليس من العيب أن يقرّ الزوج بحب زوجته بل الأولى أن يصارحها بـــذلك لإدامـــة العـــشرة والمودة بينهما ؛ لأن الزوجة يسعدها أن تشعر أنها مرغوب فيها وأن زوجها يحبها .

وقد صرح رسول الله ﷺ بذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري: أَنَّ رَسُـــولَ اللَّـــهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَبَعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ الـــسَّلَاسِلِ قَـــالَ فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ عَائِشَةُ قُلْتُ مِنْ الرِّجَالِ قَـــالَ أَبُـــوهَا قُلْـــتُ ثُمَّ مَنْ قَالَ عُمَرُفَعَدَّ رِجَالًا فَسَكَتُّ مَخَافَةَ أَنْ يَجْعَلَنِي فِي آخِرِهِمْ " (41)

أليس في تصريح النبي ﷺ بحبه لعائشة على الملأ – جواباً للسائل – دلـــيل علـــى جواز التصريح بحب الزوجة بل على استحباب ذلك إذا طلب منه ؟!

لقـــد اعتنى الإسلام بالعلاقة بين الزوجين اهتماماً بالغاً وحض على التـــراحم والـــتواد الـــباعث على المحبة والرضا، وذلك لأن استقامة الأسرة وتـــبادل المحـــبة بـــين الطرفين يدفع إلى تنشئة الأولاد في جوّ نفسي هادئ

(40) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص١٤٦ .
(41) أخرجه البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باب مناقب أبي بكر رقم ٣٦٦٢ .

يعينه على الاستقامة والصلاح فإذا صلحت الأسرة صلح الأولاد وصلح المجتمع كله ؛لأن كيان المجتمع المسلم ولبناته هي هذه الأسر .

فكأنى برسول الله ﷺ حين يرد على سؤال الصحابي . أيُّ النَّاس أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ فيقول " عَائِشَةُ " يريد أن يلفت انتباهه وانتباه كل مسلم إلى أن أولى الناس بصرف المحبة إليها هي الزوجة ثم يأتي الأصحاب في المرحلة التي تليها .

كما أن في إجابته " عائشة " بحذف المسند إليه – إذ تقدير الكلام أحب الناس إليّ عائشة – والإسراع بذكر المسند مباشرة ما يدل على قربها رضي الله عنها من قلبه وتمكن حبها منه .

وقد أغنى عن ذكر هذا المسند إليه وروده في السؤال اختصارًا واحتراز من العبث لقيام القرينة فى السؤال التى تعين المحذوف لينضم هذا الغرض إلى غرض بلاغى آخر هو سرعة ذكر المسند دلالة على أهميته (٤٢).

لقد أدى حبه ﷺ للسيدة عائشة ولطفه معها وإكرامه معاملتها إلى كسر الحاجب النفسي بينهما على الرغم من فارق السن الكبير فالنبي ﷺ فوق الخمسين وهي دون العشرين . ومع ذلك ينزل معها إلى ما يناسب سنها حتى صار حبه لها يؤهلها لحالة من الدلال عليه ﷺ حتى إنها لتغاضبه وهو ﷺ يغفر لها ذلك ويسامحها عليه .فقد روى مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى قَالَتْ فَقُلْتُ وَمِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ قَالَ أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً فَإِنَّكِ تَقُولِينَ لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ وَإِذَا كُنْتِ غَضْبَى قُلْتِ لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ قَالَتْ قُلْتُ أَجَلْ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ" (43) .

فهذا الحديث يمثل صورة من أجمل حالات الانسجام والنشاط بين الزوجين التي لا تكون إلا مع حب صادق متبادل .

---

(42) يراجع : الإيضاح للخطيب ص ٦٢ - ط مكتبة الآداب - ت / عبد القادر حسين ، ويراجع : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح - للشيخ / عبد المتعال الصعيدى - ط مكتبة الآداب ١٩٩٩ م .

(43) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة رقم الحديث ٢٤٣٩ .

بل انظر إلى دلال السيدة عائشة وتمثلها موقف الغضبى من رسول الله ﷺ وما ذاك إلا لثقتها في مكانتها عند النبي ﷺ . حتى إنه ﷺ ليتأكد من موقفها فيقول : " إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى " فيؤكد كلامه بإن واللام واسمية الجملة ليعلمها أن موقفها في كلا الحالتين واضح أشد الوضوح يزيد الموقف جلاءً استعماله لـ " إذا " دون " إن " لما يعرف من أنها تستعمل في الأمر الواضح المقطوع به دون المشكوك فيه . فهي عندما تكون راضية تتمثل أعلى حالات الرضا .

وإذا كانت غضبى تتصنع حال المغضب الظاهر الغضب الذي يظهر غضبه في كلامه .

ثم انظر إلى تواضعه وتلطفه ﷺ مع أزواجه إذ يقول لها " إذا كنت عني راضية وإذا كنت عليَّ غضبى " فينزلها منزلة من يملك ذلك في أتم الحالتين وذلك باستخدام الطباق في قوله " عني " و " عليّ " . فالرضا عن الآخر هو أتم حالات الرضا والغضب على الآخر هو أعلى درجات الغضب ولم يكتف ﷺ بأن يقول إذا كنت راضية وإذا كنت غضبى . بل يعلق الأمر به ليشعرها بأنها تملك أن ترضى عنه أو تغضب عليه تأكيداً لمكانتها من نفسه وتمكن حبها منه .

ثم انظر تمادي السيدة عائشة في دلالها حين تقول له " ومن أين تعرف ذلك ؟ وكأنها واثقة من قوة موقفها وتريد أن تطمئن إلى الطريقة التي وصل بها وموقفها إلى النبي ﷺ .

فيقول لها ﷺ " أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً فَإِنَّكِ تَقُولِينَ لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ وَإِذَا كُنْتِ غَضْبَى قُلْتِ لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ " فهي في حالة الرضا لا تستغني عنه ﷺ حتى في يمينها وحلفها وأما في حالة الغضب لا تهجر إلا اسمه ﷺ وتقول لا ورب إبراهيم . لكن قلبها مغمور بحبه ﷺ وما هذه المغاضبة إلا من فرط محبتها له وغيرتها عليه " ولولا ذلك لكان على السيدة عائشة في ذلك من الحرج ما فيه لأن الغضب على النبي ﷺ وهجره كبيرة عظيمة .

ولذلك كان اعترافها بتملك حب النبي ﷺ منها حتى في حالة الغضب فقالت : " أَجَلْ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ " فهي تعترف وتؤكد اعترافها بالقسم بأن الهجر للاسم فقط تعني بذلك أنها إن أعرضت عن ذكر

اسمه في حالة غضبها فقلبها مغمور بمحبته ﷺ لم يتغير منها شيء . وفي هذا ما يدل على ما كانا عليه من الصفاء في المحبة وحسن العشرة " (44) .

وهل هناك صفاء في المحبة أرقى من ذلك إذ تتمثل في رسول الله ﷺ أعلى صور الزوج المثالي الذي يتفقد حال زوجته ويراعي مشاعرها حتى إنه ليحس بتغيرها في حالة الغضب فيلاطفها ويترفق بها .

وها هي السيدة عائشة تضرب المثل الأعلى في حال الزوجة الوفية فهي تعترف بأن حبه متمكن فيها حتى في حال الغضب فهي إن هجرت لا تهجر إلا اسمه لكن القلب مغمور بالمحبة . وهكذا كان حاله ﷺ مع بقية أزواجه فقد كان ﷺ في معاملته لا يفضل زوجه على أخرى فقد كان ﷺ يسوى بينهم في المبيت ونحوه وأما محبة القلب فقد كان يحب عائشة أكثر وهذا أمر لا ملام فيه وقد أقر ﷺ بذلك في حديثه حيث قال : " اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك " (٤٥) .

ثم انظر إلى صورة أخرى من صور معاملته ﷺ للسيدة عائشة التى تفيض بالحب والحنان مع فارق السن الكبير بينهما ، فضلاً عن قدره العالى صلوات الله وسلامه عليه تجده ﷺ ينزل إلى مستوى عقلها ويقدر لها حداثة السن ولا يشعرها بأى فارق بينهما ، وإليك نص الحديث :

روى البخارى عن عروة عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ تُغَنِّيَانِ بِغِنَاءِ بُعَاثَ فَاضْطَجَعَ عَلَى الْفِرَاشِ وَحَوَّلَ وَجْهَهُ وَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَانْتَهَرَنِي وَقَالَ مِزْمَارَةُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِوَسَلَّمَ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ : دَعْهُمَا فَلَمَّاغَفَل غَمَزْتُهُمَافَخَرَجَتَا وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالدَّرَقِ وَالْحِرَابِ فَإِمَّا سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِمَّا قَالَ تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ فَقُلْتُ نَعَمْ فَأَقَامَنِي وَرَاءَهُ خَدِّي عَلَى خَدِّهِ وَهُوَ يَقُولُ دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ حَتَّى إِذَا مَلِلْتُ قَالَ حَسْبُكِ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَاذْهَبِي(٤٦) .

---

(44) يراجع المفهم للقرطبي جـ٦ ص ٣٢٣ .

(45) سبق تخريجه .

(46) رواه البخارى فى كتاب الجهاد - باب الدرق جـ ٣ ص ١٠٦٤ - حديث رقم ٢٧٥٠ .

وفى رواية النسائى بإسناد صحيح من طريق أبى سلمة عن عائشة زوج النبـــي صلى الله عليه وسلم قالت دخل الحبشة المسجد يلعبون فقال لي يـــا حميـــراء أتحبين أن تنظري إليهم فقلت نعم فقام بالباب وجئته فوضعت ذقني على عاتقه فأسندت وجهي إلى خده قالت ومن قولهم يومئذ أبا القاسم طيبا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبك فقلت يا رسول الله لا تعجل فقـــام لـــي ثم قال حسبك فقلت لا تعجل يا رسول الله قالت ومالي حب النظر إليهم ولكني أحببت أن يبلغ النساء مقامه لي ومكاني منه " (٤٧) .

من خلال هاتين الروايتين يتبين لنا معاملته ﷺ للسيدة عائشة ومدى صبره عليها وإعطائها الفرصة لتلهو ، ويتبين لنا أيضًا مكانة السيدة عائشة من قلب النبى ﷺ .

وأول مـــا يلفـــت الانتباه هنا هو عرضه ﷺ على السيدة عائشة أن تنظـــر إلـــى بعـــض اللهو الذى كان من الحبشة مما يدلك على مراعاته ﷺ للجانـــب النفـــسى عند السيدة عائشة نظرًا لحداثة سنها أو لأن المرأة على العموم تميل بطبعها الرقيق على اللهو واللعب ، وكأنه بذلك ينبه الرجال إلى هـــذا الجانـــب الخطير فى شخصية المرأة فلا يغفل الرجل ميلها النفسى على اللعـــب وعدم صبرها على الحياة الجادة الجافة لما تتمتع به المرأة من رقة فـــى المشاعر ووفرة فى الأحاسيس تجعلها تميل على الترويح واللهو المباح مـــن الحين على الحين ، ولو أن الرجال فطنوا لهذا الجانب فى طبيعة المرأة لفـــتحوا لأنفـــسهم بابًـــا كبيـــرًا من السعادة الزوجية لطالما حرمه كثير من الأزواج وخلت منه معظم البيوت .

ثـــم انظر إلى أسلوبه ﷺ حين عرض عليها النظر إلى الحبشة تجد الحـــب والحـــنان يفيض من جوانبه وتجد المؤانسة والملاطفة تشق طريقها إلـــى قلـــب هذه الزوجة الحبيبة ، تأمل قوله ﷺ " يا حميراء " (٤٨) وما فيه

---

(47) السنن الكبري كتاب عشرة النساء - باب إباحة الرجل لزوجته النظر على اللعب جـ ٥ ص ٣٠٧ رقم ٨٩٥١ - ط دار الكتب العلمية بيروت - ط أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م - تحقيق د / عبد الغفار البندارى .

(48) حميراء : تصغير حمراء ويريد بها البيضاء . يراجع : النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الجزرى جـ ١ ص ١٤٤ - ط المكتبة العلمية - تحقيق / طاهر أحمد الراوى ومحمود الطناحى .

من نداء السيدة عائشة بهذا اللقب المصغر تصغير حب وتدله فقد ذكر النحاة أن من أعراض التصغير التحبب وإظهار الود كأن تقول يا أخَى أو يا بنَى (٤٩) .

لقد اجتمع فى هذه اللفظة " يا حميراء " ثلاث نكات بلاغية أولها النداء بأداة النداء " يا " التى هى لنداء البعيد مع قربها منه ﷺ إشارة على بعد مكانتها وعلو منزلتها من نفسه ثم وصفها بالحمراء ويقصد البيضاء وهو وصف يغازلها ويلاطفها به ، ثم تصغير هذا الوصف تصغير تدله وحب وملاطفة وود ، بل إن النبى ﷺ كان يديم ذكرها بهذا الوصف حتى شاع وصار لقبًا خاصًا بالسيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها ، تفخر به بين قريناتها من أزواجه ﷺ ، ولم يسمها باسمها بل ذكرها بهذا اللقب المحبب إلى قلبها إعلانًا لمكانتها من قلبه وما امتازت به عن باقى أزواج النبى ﷺ .

ثم بعد أن ناداها بهذا اللقب الحانى قال : " تحبين أن تنظرى إليهم ؟ " فهو الذى يعرض عليها ما يدخل عليها السرور من النظر إلى هذا اللهو المباح إشارة منه ﷺ إلى مسارعته فى هواها ، وليكون هو الذى يبدأ بإدخال السرور على زوجته حتى يكون قدوة لكل الأزواج فى كل زمان وفى كل مكان .

بل انظر إليه تراه حتى فى عرضه يستخدم لفظة الحب " تحبين " ولم يقل مثلاً تريدين أو هل لك أن تنظرى أو غير ذلك وكأنه ﷺ يريد أن يدلل على صدق مشاعره نحوها فاستخدم هذه اللفظة رسولاً إلى قلبها تخبرها بمكانتها من قلبه ﷺ .

ولأن الحب الصادق يستشعره قلب الحبيب مباشرة تجد السيدة عائشة رضى الله عنها تتجاوب معه على نفس الدرجة من هذه المشاعر الدافئة فتقول : " فقلت نعم ، فقام على الباب وجئته فوضعت ذقنى على عاتقه فأسندت وجهى إلى خده " وفى رواية البخارى : " فأقامنى وراءه خدى على خده " (٥٠) .

---

(49) يراجع : النحو الوافى لعباس حسن جـ ٤ ص ٦٨٤ .

(50) البخارى - كتاب الجهاد - باب الدرق جـ ٣ ص ١٠٦٤ رقم ٢٧٥٠ .

لك أن تتخيل هذه الصورة الرائعة المعبرة عن المشاعر الجياشة والتوافق التام بين أفضل زوجين عرفتهما البشرية ، لك أن تتخيل صورة السيدة عائشة وهى ملتصقة بظهر النبى ﷺ ذقنها على كتفه ﷺ ملصقة خدها بخده ، إن هذا الالتصاق الظاهرى بين خدى النبى ﷺ والسيدة عائشة لا يكون بهذه الصورة الرائعة إلا إذا كان هناك التصاق وتواؤم بين قلبيهما .

والسيدة عائشة تعيش هذه الحالة فى سعادة غامرة لا تريد أن تنفك عنها بل إنها فوق ذلك تريد أن تعلم النساء جميعًا بمكانتها من رسول الله ﷺ وتفخر بذلك – وحق لها – فمن من النساء حازت شرقا أفضل من ذلك أو حبًا أصفى ولا أنقى من ذلك ؟ ! .

اسمع إليها تقول : " فقال رسول الله ﷺ : حسبك ، فقلت يا رسول الله لا تعجل ، فقام لى ثم قال : حسبك ؟ فقلت لا تعجل يا رسول الله ، قالت ومالى حب النظر إليهم ولكنى أحببت أن يبلغ النساء مقام لى ومكانى منه " .

إنه حوار هادئ لطيف يملؤه الدفء والحب والحنان ، فالنبى ﷺ فى تلطف يقول له : حسبك ؟ أى أكافيك هذا القدر ، فهو لا يستحثها على الانصراف بل إنه يخشى عليها السآمة والملل فوقوفه ﷺ لها على هذه الصورة التى رأيناها كان من أجل إدخال السرور عليها ، فهو عندما يسألها لا يقصد أن يقول لها انصرفى بل يخشى أن تمل من الوقوف ثم تستحى أن تنصرف لأجل قيامه لها ، يدل على ذلك قولها فى رواية أخرى عند البخارى: " رأيت النبى ﷺ يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد حتى أكون أنا الذى أسأم " (٥١) .

والاستفهام فى قوله " حسبك " مقدر وحسبك مبتدأ خبره محذوف تقديره أكافيك هذا القدر (٥٢) وكأن الإيجاز بحذف أداة الاستفهام وحذف

(51) صحيح البخارى ك النكاح ب نظر المرأة إلى الحبش من غير ريبة جـ ٥ ص ٢٠٠٦

(52) يراجع : عمدة القارى - شرح صحيح البخارى للعينى جـ ٦ ص ٢٧١ ط دار إحياء التراث العربي بدون .

الخبر مقصود من النبى ﷺ حتى لا يطيل عليها الكلام فيخرجها من هذه الحالة وهذه النشوة التى تعيشها .

وتصدق السيدة عائشة على هذا الكلام فتقول " يا رسول الله لا تعجل " فهى تعيش سعادة غامرة تريد أن تخبر بها كل النساء .

والنبى ﷺ يلبى لها رغبتها فيقوم لها قيامًا طويلاً عبرت عنه بقولها " فقام لى ثم قال حسبك " فالتعبير بثم التى تفيد التراخى والتأخر فى الزمن تصور لك طول قيامه ﷺ وما به من سآمة لكن يخشى عليها أن تكون هى التى سئمت .

ثم تفصح السيدة عائشة رضى الله عنها عن سر لم تستطع أن تكتمه وهو أنها تفخر بهذا الحب وتريد أن تعلم النساء به فقالت : " ومالى حب النظر إليهم ، ولكنى أحببت أن يبلغ النساء مقامه لى ومكانى منه " حق لك يا أم المؤمنين يا حبيبة رسول الله ﷺ يا ليت النساء جميعًا يعلمن ذلك ، بل يا ليت كل الدنيا تعلم ذلك لتعيش هذه السعادة الزوجية التى عاشها المصطفى ﷺ فى بيته ومع أزواجه على الرغم من أعباء الدعوة وأمانة الرسالة التى كانت تشغل باله فى كل أحواله .

وبهذه التطوافة السريعة حول حياته ﷺ في بيته ومن خلال ما رأينا من الملاطفة التي كانت بينه وبين أزواجه نكون قد قدمنا نموذجا سامياً وصورة مشرفة للبيت المسلم وللحياة الزوجية السليمة التي تقوم دعائمها علي رباط متين من الحب والود والرحمة ، لعل هذا النموذج يكون نبراساً للسالكين

وعونًا المتعثرين في طريق الحياة الزوجية، والله المستعان

الخاتمة

الحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات ، والصلاة والسلام على خير البريات ، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد ..

فقد رأينا فى هذه التطوافة السريعة حول حياته ﷺ فى بيته صورًا مشرفة من الحب والوفاء وفن التعامل مع الأزواج ، ورأينا كيف دعا المصطفى ﷺ إلى حسن العشرة مع الأزواج ، وإظهار الود والملاطفة لهن قولاً وعملاً ، كما رأينا أيضًا كيف كان ﷺ يصرح بهذا الحب دون تحرج أو استحياء لأنه أراد أن يعلمنا أن حب الأزواج وملاطفتهن من صميم هذا الدين ، فعندما يسأله أحد الصحابة – رضى الله عنهم – من أحب الناس إليك ؟ يقول : " عائشة " ، وعندما تغار السيدة عائشة من السيد خديجة يقول لها : " إنى قد رزقت حبها " ، بل إنه يصرح للناس جميعًا بأن الحب الصادق الطاهر العفيف لا يتعارض مع هذا الدين الحنيف ، ولا مع رسالته ﷺ فيقول : " حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساء والطيب " ، ليعلن للبشرية جميعًا أن هذا الدين لا يعارض الفطرة ولا يتجاهل العواطف والمشاعر بل إنه يقدرها ويحترمها ويضعها فى نصابها الصحيح ، ثم يترجم ﷺ هذه الأقوال إلى واقع عملى تتجلى عظمته فى معاملته الراقية لأزواجه وفى ملاطفتهن وإظهار الود والحب لهن على نحو ما رأينا من الصور الرائعة فى هذا البحث .

ومما يستخلص فى هذا البحث من روائع بلاغته ﷺ فى التعبير عن هذه العاطفة ما يلى :

- تعبيره ﷺ عن الحب بأنه أمر قلبى يتصرف فيه من يملك القلوب وذلك عن طريق حذف المفاعل وبناء الفعل لما لم يسم فاعله فى نحو قوله : " حُبب إلىَّ " ، و " إنِّى رُزقت حبها " والعلة فى هذا الحذف هو العلم بالفاعل فلا حاجة لذكره لأنه ظاهر ، فالذى يملك القلوب ويصرفها من الحب إلى البغض ، والعكس هو الله تعالى ، وكأنه ﷺ يقول لمن يتحرج من إبداء الحب لزوجته قولاً وعملاً : لا حرج فى ذلك ، فالله عز وجل هو

الـذى يرزق هذه العاطفة وهو الذى يحرك القلوب نحو المحبوب فلا لوم عليك فى إبداء ذلك مادام فى نطاق الأمر المباح .

- أيضًا تركيزه ﷺ وتأكيده على أن أمر هذه العاطفة موكول إلى الله وحده ، والعبد لا يملك من ذلك شيئًا ، وذلك من خلال تعبيره بأسلوب القصر الذى يفيد حبس هذا الأمر وحصره فى كونه ملك لله تعالى دون سواه ، وذلك فى قوله : " اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك " فقد استخدم أسلوب القصر بطريق العطف بلا ليجرد نفسه تمامًا من أمر يكون له تصرف فى هذا الأمر ، فالله وحده هو الذى يملك تصريف القلوب والعبد لا يملك شيئًا من هذا فلا لوم فيما يجده العبد من حب بعض أزواجه أكثر من غيرهن .
- حثه ﷺ على حسن معاشرة الأزواج ومعاملتهن معاملة حسنة ، وذلك عن طريق إثبات الفضل لمن اتصف بحسن العشرة وأكد على ذلك باستخدام أسلوب بليغ من أساليب التوكيد وهو أسلوب القصر فقال : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى " ، فالحديث هنا جملتان وكلتاهما مؤكدة بهذا الأسلوب الرائع ، فقد قصر الخيرية والأفضلية على كونها متعلقة بالإحسان إلى الأهل ، ثم قصر الخيرية والأفضلية المطلقة عليه ﷺ لكونه خير الناس معاملة لأزواجه ، والقصر هنا طريقة تعريف الطرفين كما علمنا خلال البحث .
- ملاطفته ﷺ لأزواجه ومداعبته لهن وإظهار وده وحبه لهن وذلك من خلال ندائهن بألطف الألقاب ، فقد كان ﷺ يقول لعائشة : " يا عائش " بترخيم اسمها ، والترخيم فى نداء الأسماء يدل على الحب واللطف والود، كما كان يلقبها بالحميراء ثم يناديها نداء مفعمًا بالحنان والرحمة ، فيقول : " يا حميراء تحبين أن تنظرى إليهم " عندما كان الحبش يلعبون فى المسجد ، فهذا النداء بـ يا التى تستخدم للبعيد إشارة إلى بعد مكانتها وعلو منزلتها عنده ، والتصغير فى حميراء تصغير تدله وحب وملاطفة وود ، يعكس لنا جانبًا رائعًا من شخصيته ﷺ فى بيته لنأخذ منه القدوة والمثل .

• وفاؤه ﷺ لأزواجه واعترافه بحسن العشرة حتى بعد الوفاة ، فقد كان دائم الذكر للسيدة خديجة – رضى الله عنها – فعندما تغار السيدة عائشة منها يعلل لها كثرة ذكره إياها بهذه الكناية الرائعة " إنها كانت وكانت " كناية عن كثرة فضائلها .

وبهذا يتضح لنا كيف كان النبى ﷺ فى بيته ، وكيف عبر عن هذه العاطفة فى أسلوب رقيق ، وكيف وظّف هذه الأساليب البلاغية فى رسم النماذج الرائعة من الملاطفة والود والحب الدافئ بين الزوجين .

وصلي اللهم علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم

فهرس المصادر والمراجع

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني تحقيق د عبد القادر حسين ط مكتبة الآداب

(٢) البيان والتبيين للجاحظ دار صعب – بيروت الطبعة الأولى ، ١٩٦٨.

(٣) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د عز الدين على السيد .

(٤) الحذف البلاغي في القرآن الكريم تأليف مصطفي عبد السلام أبو شادي – ط مكتبة القرآن الكريم .

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي ط دار ابن كثير بيروت.

(٦) النحو الوافي لعباس حسن ط دار المعارف القاهرة الطبعة التاسعة .

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر للجزري – ط المكتبة العلمية بيروت تحقيق /طاهر الزاوي .

(٨) بغية الإيضاح شرح تلخيص المفتاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي – مطبعة مكتبة الآداب القاهرة .

(٩) تحفة الأحوذي لشرح جامع الترمذي للمباركفوري – ط دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان – الطبعة الأولى ١٩٩٨ م .

(١٠) تحفة المحتاج لعمر بن محمد – ط دار حراء بمكة المكرمة – ط أولى ١٤٠٦ هـ .

(١١) الجامع الصحيح أو سنن الترمذي – ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان

(١٢) حاشه الدسوقي ضمن شروح التلخيص – ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

(١٣) خصائص التراكيب د / محمد محمد أبو موسى – ط مكتبة وهبه الطبعة الرابعة ١٩٩٦ م .

(١٤) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق محمود محمد شاكر – ط مطبعة المدني بالقاهرة .

(١٥) زاد المعاد في هدى خير العباد – لابن القيم – ط دار الريان للتراث – ط أولى ١٩٨٧ م .

(١٦) سنن أبي داود ط دار الكتب العلمية .
(١٧) سنن ابن ماجه - ط دار الكتب العلمية .
(١٨) سنن النسائي - ط دار الكتب العلمية .
(١٩) شرح عقود الجمان للسيوطي - ط عيسى الحلبى ١٣٥٨ هـ .
(٢٠) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح - للإمام الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي-ط دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى ٢٠٠١ م .
(٢١) صحيح البخاري - ط دار المنار .
(٢٢) صحيح مسلم لشرح النووي - تحقيق عصام الصبابطي - ط دار الحديث الطبعة الأولى ١٩٩٤ م .
(٢٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري - للإمام العيني - ط دار إحياء التراث العربي بيروت - بدون تاريخ .
(٢٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود - تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان-المكتبة السلفية بالمدينة المنورة-الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .
(٢٥) فتح الباري لشرح صحيح البخاري-تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي- ط دار الغد العربي - ط أولى ١٩٧٤ م .
(٢٦) لسان العرب لابن منظور الناشر : دار صادر - بيروت الطبعة الأولى .
(٢٧) مختار الصحاح للرازي - المطبعة الأميرية بالقاهرة.
(٢٨) مفتاح العلوم للسكاكي - مطبعة الحلبي بالقاهرة.
(٢٩) مواضع الفصل والوصل بين النظرية والتطبيق - د عبد السلام الأشقر - مطبعة الأمانة - الطبعة الاولي .
(٣٠) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي - ضمن شروح التلخيص - ط دار الكتب العلمية بيروت .